

الخط العربي وجهود المسلمين في المحافظة عليه

شهداء

SyuhadaK

Prodi Doktor PBA Pascasarjana UIN MAULANA MALIK IBRAHIM
MALANG

Email: sabunabil@yahoo.com

الملخص

إن حسن الخط من أحسن الأوصاف التي يتصف بها الكاتب وأنه يرفع قدره على الآخرين، ويكون وسيلة لنجاح مقاصده وبلوغ مآربه مع ما فيه من الفوائد التي لا تكاد أن تحصى. والخط العربي سيمّة الحياة الإسلامية في دولة يعيش فيها المسلمون. فجهود أبناء المسلمين في تلك الدولة على تعليمه ونشره وحفظه تدل على محبتهم للإسلام.

Abstract

It cannot be denied that the beauty of calligraphy is an excellence correlated to its writer that will raise his/ her ability higher than others. It also become medium for its owner to come to his/ her dreams wich contain unlimited benefit. Amirulmukminin, Ali r.a. said a beautiful calligraphy will make the truth is clearer and more understandable.

The existence of Islamic calligraphy is an evidence of Islamic religion life in a country. Therefore, effort from Islamic generation tolearn, teach, and preserve it, is the manifestation of their affection to Islam.

الكلمات المفتاحية: الخط؛ جهود أبناء المسلمين

مقدمة

يُروى عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ مرفوعاً، وَعَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ قَالَ: «فَيَدُّوا الْعِلْمَ بِالْكِتَابِ» (النمري، ١٤١٤ هـ / ١٩٩٤ م، ٣٠٦:١ - ٣٠٨). وترجع عناية المسلمين بالخط في الدرجة الأولى إلى أنه كان الوسيلة الأساسية التي حفظ بها القرآن الكريم، وكان الخط العربي اهتَمَّ به قدماء المسلمين كثيراً. ودل على ذلك ظهور مئات أنواع لقواعد الخط العربي، ثم لخص هذه الأنواع الكثيرة الخطاطون في ثمانية أنواع كما عرفناها اليوم، وهي الخط الكوفي، وخط الثلث، والخط النسخي، والخط الفارسي، وخط الرقعة، والخط الديواني، والخط الديواني الجلي، وخط الإجازة. ولاحظ الباحث أن المسلمين اليوم لا يهتمون كثيراً بهذه الثقافة الإسلامية السامية العريقة. وخلف هذا الوضع أسباب كثيرة دَعَوِيًّا كانت أم سِيَّاسِيًّا. وتذكيراً للإخوة المسلمين على أهمية حفظ الثقافات الإسلامية التي كادوا ينسونها، لأن موت هذا الخط موت المسلمين ثقافياً.

قدم الباحث هذه الدراسة التي تتمحور حول: مفهوم الخط وأهميته والخطوط القديمة والحديثة ونشأة الخط أو الكتابة والنظام الكتابي وجهود المسلمين التي بذلوها في حفظ أصالته. ودرس الباحث موضوعه دراسة وصفية من خلال المعلومات المكتبية التي تم تحليلها وتفسيرها بالوقائع والحقائق المحيطة هذه الآونة.

مفهوم الخط

لا شك أن الإنسان قضى قرناً طويلة يأكل ويشرب وينام قبل أن يعرف اللغة، ولا شك أيضاً أنه عندما عرف اللغة عرفها نطقاً قبل أن يعرفها كتابةً أو خطاً، إذ تمر اللغة بمرحلة النطق قبل مرحلة الكتابة، وكم من لغة زالت قبل أن تعرف كتابتها، فما استطعنا أن نعرف عنها شيئاً.

والكتابة رمز للغة كما أن اللغة رمز للفكر. وهي ظاهرة إنسانية اجتماعية عامة استخدمها الإنسان منذ أقدم العصور لتسجيل خواطره رغبةً إليه في تذكرها أو توصيلها إلى غيره من بني البشر عبر الزمان والمكان، فأفادته في مختلف الشؤون الاجتماعية حتى أننا نعدّها من أهم أسباب التقدم الحضاري في كافة المجالات.

تعريف الخط لغويا كما ذكر في معاجم اللغة العربية: «إن الخط والكتابة والتحرير والرقم والسطر كلها بمعنى واحد، ونعني نقل الأفكار من عالم العقل إلى عالم مادي على الورق بواسطة أعمال اليد بالقلم للحفاظ عليها خوفا من نسيانها، وذلك برسم أشكال للحروف تعارف عليها الناس خلال تاريخهم الطويل» (معروف زريق، ١، ١٩٨٥: ١٢). عرف ابن خلدون الخط في الجزء الأول من تاريخه في الفصل الخاص بالخط والكتابة بأنه «هو رسوم وأشكال حرفية تدل على الكلمات المسموعة الدالة على ما في النفس، فهو ثاني رتبة من الدلالة اللغوية وهو صناعة شريفة، أن الكتابة من خواص الإنسان الذي يميز بها عن الحيوان. وأيضا فهي تطلع على ما في الضمائر وتتأدى بها الأعراض إلى البلد البعيد، فتقضي الحاجات» (عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي، ١٩٨١، ١: ٤١٧). وقال القلقشندي صاحب صبح الأعشى: «ولما تقسمت الألتان نابت إحداهما مناب الأخرى، فأوقعوا اسم اللسان على القلم، فقالوا: الأقلام ألسنة الإفهام، وشركوا بينهما في الإسلام، فقالوا: القلم أحد اللسانين» (زكى صالح، ١٩٨٣: ١٢-١٣). وقد أثبت الباحثون أن الكتابة مرت بأطوار عدة قبل أن تصل إلى الطور الهجائي المستخدم في أيامنا (القلقشندي، ١٩٨٧، ١: ٩).

أهمية الخط العربي

لقد كان الوصول إلى الحروف ومعرفة الكتابة أهم حدث في تاريخ البشرية فلم تبدأ المدنية والحضارة إلا عندما استطاع الإنسان بالخط والكتابة نقل أفكاره وتسجيل آثاره. وقد كرم الله القلم والكتابة، وذكرهما في القرآن الكريم أكثر من مرة فقال تعالى في سورة العلق: ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ [العلق: ١ - ٥]، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرَانِ الْأَرْضَ يَرثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ۝١٠٥﴾ [الأنبياء: ١٠٥]، كما أقسم بالقلم في سورة القلم: ﴿ت وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١﴾ [القلم: ١]، فأول أمر صدر من الله لرسوله ﷺ هو «اقرأ»، وأول آلة أو أداة ذكرها الله وأقسم بها هي «القلم» (أميل يعقوب، د.ت: ١٣). وعن عبد الله بن عمرو بن العاص، قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «فَيَدُّوا الْعِلْمَ» قُلْتُ: وَمَا تَقْيِيدُهُ؟ قَالَ: «كِتَابَتُهُ» (الحاكم، ت مصطفى عبد القادر عطا، ١٤١١ هـ / ١٩٩٠ م / ١ / ١٨٨). وترجع عناية المسلمين بالخط في الدرجة الأولى إلى أنه كان الوسيلة الأساسية التي

حفظ بها القرآن الكريم. ومن المعروف أن النبي ﷺ كان يتخذ كتابا يدونون فيه بالحرف العربي ما ينزل به الوحي عليه. وفي عهد أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تم جمع القرآن الكريم بعد أن مات واستشهد كثير من حملة القرآن، وفي خلافة عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كتبت المصاحف وأرسلت نسخ منها إلى الأمصار المختلفة حتى يتفادى حدوث أي اختلاف في القرآن. وهكذا كان للخط العربي دوره المهم في حفظ القرآن من التحريف في تداوله وانتشاره.

ولقد حظي الخط العربي منذ القدم بإجلال العرب وتقديرهم له حتى أنهم أحاطوا نشأته بقصص إذ نسبوه إلى بعض الملوك تارة وإلى بعض الأنبياء تارة أخرى. ويستكشف من الأخبار التي وصلت إلينا أن العرب كانوا يضعون الكتابة في مرتبة أعلى من الحفظ، وكانت القصيدة التي تحوز تقديرهم تكتب بماء الذهب وتعلق على الكعبة إجلالا لشأنها. وتأكدت نزعة تفضيل الكتابة على الحفظ عند العرب بعد الإسلام. ولقد عبر ذو الرمة عن ذلك حين قال لعيسى بن عمر: «اكتب شعري، فالكتاب أعجب إلي من الحفظ، لأن الأعرابي ينسى الكلمة قد تعب في طلبها يوماً أو ليلة فيضع في موضعها كلمة في وزنهما لما ينشدها الناس» (أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري الماوردي، ١، ١٩٨٨: ٩٩). ويذكر رجال اللغة العربية والخط ممن مارسوا تدريسها وعنوا بشأنها ويعتدون برأيهم فيها أن «الخط وثيق الصلة بالحياة العامة العملية وبالحياة الدراسية والتعليمية، فهو من وسائل التفاهم ونوع من أنواع التعبير التي تخدم أغراضا شتى بين الناس، وهذا يتطلب أن تكون الوسيلة واضحة موضحة. وإذا كانت وسيلة التفاهم الشفهية وهي الكلام تتميز بحسن الأداء وجودة الإلقاء، فإن الوسيلة اليدوية وهي الخط ينبغي أن تتميز بمثل هذه الجودة وحسن العرض وجمال الشكل.

والخط العربي إلى جانب أنه وسيلة للتعبير هو فن جميل، وعلى ذلك ينبغي أن يكون تقديمه محققاً لهذه الغاية وهي جمال المظهر وحسن الشكل إلى جانب الغايات الأخرى وهي الوضوح والسرعة المقبولة» (إبراهيم ضمرة، ١٩٨٨، ٣: ١٤).

الخطوط القديمة والحديثة

إذا رجعنا إلى التاريخ وجدنا أن الآثار التاريخية تدلنا على أقدم أنواع الخطوط التي عثر عليها العلماء مؤرخة للحضارات مدونة لوجود الإنسان وتاريخ حياته. وهي الأمهات للأصناف المختلفة من الحروف في العالم، وهذه الأنواع هي:

- (١) **الخط المسماري**: وهو النوع الذي استعمل في بابل وأشور وما حولها من مناطق العالم، وقد انقرض هذا النوع لصعوبة التعامل معه.
- (٢) **الخط الحيثي**: الذي كان مستعملا قديما في الشام وقد انقرض هذا النوع أيضا لأن خطا آخر حل محله أكثر واقعية وأسهل استعمالا.
- (٣) **الخط الصيني**: وهو الخط المستعمل في جنوب شرق آسيا وقد تفرع منه أنواع مختلفة مازالت مستعملة إلى العصر الحاضر.
- (٤) **الخط المصري**: وهو الخط الذي انتشر في البلدان المجاورة نتيجة اختلاط الأمم بالحضارة المصرية، ومن فروع الخط الفينيقي الأكثر سهولة والأوسع انتشارا في آسيا وإفريقيا وأوروبا (المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، ١٩٧٨: ٢٣-٢٤).
- الخط الذي يهمننا هنا والذي يعتبر الجذر الأول للخط العربي ورسم حروفه المتدرجة عنه هو الخط الهيروغليفي المصري والذي أوصل الباحث إلى الرأي أن أول من اخترع الكتابة هم المصريون القدماء.
- ويقول جورج سارتون في الجزء الأول في تاريخ العلم: «أعظم ما قام به المصريون الأولون من جهود حضارية هو اختراع الكتابة سواء أكانوا هم أول من اخترعها أم سبقهم في ذلك السومريون والصينيون. فهذه المسألة موضع جدل ونظر، ولكنهم على أية حال اخترعوها مستقلين عن غيرهم. وينبغي ألا ننسى أن اختراعا كهذا بقطع النظر عن موضع ظهوره لا يمكن تحديد زمنه بالضبط لأنه لا يظهر دفعة واحدة ولا في زمن معين. وأن ذلك الاختراع بدأ في مصر في عهد ما قبل التاريخ، ويمكن أن يقال إنه وصل إلى مرتبة من الكمال قبل نهاية ذلك العصر، لأن أقدم الكتابة التي وصلت إلينا ترجع إلى عصر الدولة القديمة» (زكي صالح، ١٩٨٣، ١: ١٦).
- واتفق الباحثون على أن الكتابة المصرية القديمة بدأت باستعمال صور للتدليل على أشياء أو أفكار ثم تطورت الصورة فأصبحت تمثل كلمة من كلمات اللغة ثم كلمات ذوات أصوات واحدة ثم استعملت رموز للدلالة على العلامات الساكنة الأولى من الصوتيات. وهكذا صار للمصريين زمن الدولة القديمة أربعة وعشرون حرفا استعملوا بجانبها رموزا أخرى. وقد تنوعت الكتابة المصرية القديمة فمنها:
- (١) **الهيروغليفية (الخط المصري)** وهي التي كانت خاصة بالكهان وخدمة الدين ولا يعرفها غيرهم وأطلق عليها الباحثون اسم (الأندورا).

(٢) الهيراطيقية (خط الخاصة) وهي كتابة عمال الدواوين وكتاب الدولة.
 (٣) الديموطيقية (خط العامة) وهي كتابة الكاتبين من الشعب وهي أبسط الأصناف الثلاثة (إبراهيم ضمرة، ١٩٨٨، ٣: ١٤).

ولقد تأثرت الشعوب السامية في الشرق الأدنى بالحضارة المصرية القديمة وظهر هذا الأثر في الصلة الكبيرة بين اللغة المصرية واللغات السامية. وكان من نتائج هذه الصلة أن بلغ اختراع المصريين للكتابة درجة أعلى على يد الفينيقيين الذين استعاروا من الحروف المصرية القديمة خمسة عشرة حرفاً وأسسوا عليها الحروف الفينيقية.

وقد حاول أرثر استيفنس أن يثبت في عام ١٨٩٥ م أن الصور التخطيطية للحروف الكريتية هي أصل الحروف الفينيقية، إلا أن هذا الرأي افتقر إلى الدليل حيث أن معظم الحروف الكريتية لم يزل غير معروف، ولا يمكن الاعتماد على مظهر الحرف وشكله في تتابع تاريخه مع ما كانت عليه الحروف في البداية من تغيير وتطوير مستمر.

وكما استبعد الباحثون اشتقاق الحروف الفينيقية من الكريتية فقد استبعدوا كذلك محاولات أخرى تنسبها للحروف الحيثية، والأكدية، والبابلية؛ فإنه لا يوجد أي احتمال لاشتقاقها من الحروف الحبشية إذ تروى القصص التاريخية أن أهل فينيقيا هاجروا من منطقة الخليج العربي (الفارسي) في حوالي الألف الثالثة قبل الميلاد، وفي نفس الوقت تذكر التوراة أن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ خرج باليهود من كالدنيا في بابل إلى أرض كنعان بفلسطين؛ ويذكر التاريخ المصري القديم أن اللغة البابلية والخط البابلي كانا معروفين بين الفينيقيين، إلا أن هذا لا يعنى أنه لا يستطيع استنتاج شيء عن اللغة والخط الذين استعملهما الفينيقيون في حياتهم الخاصة (زكى صالح، ١٩٨٣، ١: ١٨).

ويرى العلماء أن العمال الساميين الذين اشتغلوا في مناجم شبه جزيرة سيناء تحت إشراف بعض الموظفين المصريين في عهد امنحتب الثالث حوالي ١٨٤٩ أو ١٨٠١ ق م أدخلوا الكثير من التحرير والتبسيط على الحروف الهيراطيقية وعلى الرغم من ذلك فيمكن تبين الأشكال الفرعونية في حروف نقش سينا (محمد فخر الدين، د ت: ٥).

ويظهر أن هذه الأبجدية البدائية قد انتقلت مع الهجرات الكثيرة ورحلات التجار إلى بلاد العرب جنوباً، وفلسطين شمالاً؛ وتفرع منها فرعان مختلفان تماماً، وكان الفرع الذي اتجه شمالاً هو أصل الأبجدية الفينيقية؛ وهذه النظرية هي أكثر النظريات التي قدمت حتى الآن احتمالاً. ومن الحروف التي اشتق الآراميون خطهم الذي عرف بالخط

الآرامي ونقلوا الأبجدية الفينيقية شرقاً إلى حدود بلاد الهند كما انتشر الخط الفينيقى غرباً واشتقت منه الحروف اليونانية. فهناك دلائل كثيرة تدل على أن سكان بلاد اليونان استعملوا أبجدية التجار الفينيقيين الذين اتصلوا بهم في تجارتهم وينسب الإغريق أنفسهم اختراع الكتابة إلى الفينيقيين. وقد انتقلت الأبجدية الإغريقية غرباً وكانت للأبجدية الرومانية التي أصبحت بالتالي الأصل الذي اشتقت منها الحروف القبطية (زكى صالح، ١٩٨٣، ١: ١٩).

هذه أشهر الروايات التي تناولت الكتابة القديمة وبداية الخط العربي، والتي تنوعت في مصادرها بين رآو ينسج حدثاً، ومستشرق يجهد في البحث، وآخر يخلق حدثاً يدعم به وجهة نظر يرجحها.

الخطوط الحديثة

ظهر مؤخراً نوع من الكتابة ينعت (بالحديث) لا يلتزم كاتبه بأية قاعدة ولا شكل معين، إنما يعتمد على ذوقه وحسن تنسيقه، وقد يرى البعض بأن هذا النوع هو خير مخرج لهم حين يواجهون صعوبة إتقان الخطوط المعروفة، ظناً منهم أنه بإمكان أي شخص أن يكتب به بحرية التصرف المعروفة، إلا أنه على خلاف رأيهم، هذا الرأي لا يمكن الأخذ به في الكتابة عامة ما لم يكن فناً بفطرته، ويتحسس الأشكال والنسب، وحينئذ فقط يمكن الاعتراف بخطه فناً، كأية لوحة فنية مرسومة، ورغم الجمال الذي يُطَفِّح به بعض اللوحات الخطية، فإنها لا تحمل من معاني العمق ما يحث الفنانين على كتابة الآيات الكريمة أو الأقوال الماثورة والحكم البالغة بهذا الخط الحديث، فهو خط يناسب لوحات الإعلانات أكثر من أي شيء آخر.

نشأة الكتابة

مرت الكتابة منذ أقدم العصور بأطوار متدرجة، غير أنه ليس باستطاعة أحد من الناس أن يتعرف على أول من بدأ بالخط أو الصورة التي تمت بها الكتابة.

وإذا رجعنا إلى نشأة الكتابة نجد آراءً مختلفة وروايات متباينة. قال ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: «أول من كتب بالعربية ثلاثة رجال من بولان، وهي قبيلة سكنوا الأنبار، وأنهم اجتمعوا فوضعوا حروفاً متقطعة وموصولة، وهو مرارة بن مرة، وأسلم بن سدرة وعامر بن جدرة» (أبو الفرج محمد بن أبي يعقوب إسحاق ١٩٨٨: ٧). ويذكر صاحب المطع النصرية أن الحافظ السيوطي قال في كتاب الأوائل، وكذا في المزهري في - النوع ٤٢ - أنه:

«يروى أن آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ أول من كتب الكتاب العربي والسرياني وسائر الكتب الاثني عشر، وإن الكتابات كلها من وضعه. كان قد كتبها في طين وطبخه (يعنى أحرقه ودفنه) قبل موته بثلاثمائة سنة، فبعد الطوفان وجد كل قوم كتابا فتعلموه بإلهام إلهي ونقلوا صورته واتخذوه أصل كتابتهم». (محمد طاهر الكردي، ١٩٣٩: ١٦١) ويرى بعض العرب أن الخط الذي كتبوا به «توقيف» أي أنه ليس من صنع البشر، ولكن الله تعالى علمه آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ بالوحي، وقد قال البعض بهذا الرأي تفسيراً لقوله تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ [البقرة: ٣١]. وقيل: إن أول من كتب هو سليمان بن داود عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، وأن أول من كتب بالعبرانية هو موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وبالعربية هو إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ، غير أن هذه الروايات كلها على ما فيها من تناقض أو اقتباس تفتقر إلى الدليل، ويعوزها سند من العلم والتاريخ.

وقد أدرك ابن خلدون خطأ هذه الفكرة «التوقيف» إذ يقرر أن الكتابة من جملة الصنائع المدنية المعاشية. (زكى صالح، ١٩٨٣، ١: ١٥)

بعد دراسة الآثار وجد أن الكتابة تطورت عبر أطوار مختلفة متدرجة عبر عصور موعلة في القدم، وكان تطور الكتابة قد مر بخمس مراحل، هي على النحو التالي: (ناجي زين الدين، ١٩٧٤ م، ٢٩٥).

(١) **الطور السوري:** وهذا الطور يعتبر أول المراحل الذي شهد رسم الأفكار خارج إطار الدماغ، حيث التعبير عن الأفكار بالصور، فكانت مادة الكتابة ترسم رسماً؛ فإذا أراد الإنسان القديم أن يرسل رسالة إلى صديق له يخبره انه ذهب لصيد السمك فانه يرسم رجلاً يمسك بيده قصبه وفي رأسها خيط تتدلى منه سمكة في طرفه ويتجه برأسه نحو بحيرة.

(٢) **الطور الرمزي:** وهو طور متطور للطور السوري حيث أصبح المرء يعبر عن معانٍ مختلفة من خلال الصور؛ وإذا أراد أن يتحدث عن لوح، رسم رجلاً يضع يده في فمه، وبذلك اصطاح على هذه الصور بهذه الرسوم المختلفة التي أصبحت رمزا لهذه المعاني.

(٣) **الطور المقطعي:** هذا الطور يعتبر البدء الحقيقي لطور الكتابة في تهجئة الكلمات وانفصالها عن الصورة ذاتها، فأصبح استعمال الصورة لا يعني معنى الصورة بالذات، بل أصبحت الصورة تدل على الصوت، مثلاً إذا أريد كلمة تتكون من مقطعين مثل

كلمة «يدحر، يدهش»، فإنه يرسم صورة الكف والتي تعني الضرب باليد على الوجه وليست الصورة ذاتها.

٤) **الطور الصوتي:** وهذا الطور تطور طبيعي لما كانت عليه الكتابة حيث لجأ الكاتب إلى استخدام صور أشياء يتألف منها هجاء الصوت الأول لاسم الصورة ولفظها. أي أن صورة الكلب ترمز إلى حرف الكاف وصورة غزال ترمز إلى حرف الغين.

٥) **الطور الهجائي:** وكان هذا الطور نتيجة طبيعية لتقدم الحضارات واتساع المعارف، فأصبحت حاجة الناس ماسة إلى تغيير نظام الكتابة وابتكار علامات جديدة تساعد على اكتساب المكتسبات الجديدة. وأول من حاول ابتداع مثل هذه العلامات هم السومريون، فابتدعوا علامات تشبه المسامير العمودية والمائلة والأفقية، بلغت ستمائة علامة، وذلك في حدود سنة ٣،٢٠٠ ق.م، ثم اختصرت هذه العلامات إلى ما بين مائة وخمسين إلى مائة علامة، ولكن هذه العلامات لم تصل إلى درجة السهولة واليسر في التعليم والتعامل بها (إبراهيم ضمرة، ١٩٨٨، ٣: ٢٠).

الكتابة اليوم

لم يصل كثير من الكتابات أو الخطوط بالصورة التي بدأت بها، فقد كان بعض الخطوط يظهر بشكل خاص في فترة ما ثم يشكل آخر فترة أخرى وينسى الشكل الأول للخط لفترة طويلة من الزمن وقد يعود بمواصفاته الأولى التي ميزته عند ظهوره لأول مرة. فإذا رجعنا إلى أنواع الخطوط تأكد لنا ما ذهبنا إليه من ظهور أنواع من الخطوط في بعض الأقاليم دون البعض الآخر وبقاء بعضها منذ نشأته حتى الآن مع زوال بعضها الآخر. وهنا يحسن أن نشير إلى المحاولات الأخيرة التي صاحبت وسائل الإعلام واحتياجات الصناعة لتطوير الخط مما يظهر على التلفاز، والحاسوب، وفي بعض الإعلانات، وعناوين الكتب، والصحف والسيارة، واللافتات من خطوط حديثة لا تخضع لما تعارف عليه الخطاطون الموجودون من نسبة فاضلة أو محسنات أخرى، سواء من حيث الشكل أو الوضع ولكنها تخرج على هذا وتعتمد على التركيب الهندسي الفاضلة النسب والمحسنات ولهذا لا يستسيغها الخطاط المجد ولا تعتبر من أنواع الخطوط المشهورة، ولكنها خطوط زخرفية لجأ إليها البعض بواقع الرغبة في التجويد والخروج على النمط القديم للجهل بأصوله متذرعين بالاستجابة لمتطلبات العصر قد يصل بعضها إلى درجة الضعف والتشويه.

غير أنه لا يمكن أن ننكر أن بعضها يتسم بالجمال ولا يمكن أن ننكر أن بعضها لا يهدم العناصر الأساسية لخصائص الكتابة الفنية الجميلة. ولذا نجد من بين من تناول هذا الموضوع واقتصر نظره على ما اتسم بالجمال، وما لم يهمل الخصائص الفنية في هذا الاتجاه من يرى تشجيعه بل ويطالب المشتغلين بشئون الخط في هذه الأيام أن يولوا هذا اللون من عنايتهم بالرعاية والنصح والإرشاد؛ ويا حبذا لو تقرر تدريسه بكلياتنا الفنية، ومعاهدنا العالمية، ومدارسنا الصناعية والزخرفية التي تدخل الكتابة الزخرفية في نطاق مقرراتها (زكى صالح، ١٩٨٣، ١٥٣).

فاليوم الحضارة الغربية أثبتت أنها قد استفادت كثيرا من فكرتي الكتابة والأرقام، وطُفرت بالمعارف العلمية طفرات هامة. فإذا كانت الآلة الحاسبة، مثلا هي أساس تقنية الحاسوب والمعلومات، فالأرقام العربية بدون شك كان لها دورها الهام في تسهيل كل ذلك. والغرب من جانبه حتى الآن لم يعلن الاستغناء عن معارف الأمم الأخرى، ولن يفعل ذلك بكل تأكيد. وقد أكدت خيرة ألمانية عام ٢٠٠٢ في جريدة الندوة السعودية وقالت: إننا (الغرب) وصلنا إلى هذا التقدم معتمدة على الابتكارات من قدماء علماء المسلمين، منها الأرقام. ففي ميادين العلم، المعرفة متاحة للجميع، مبادئها، أو وسائلها، أو نتائجها، وفوائدها على السواء. إننا جميعا ننتمي بفخر لعالم الحضارات الحديثة، وهي تتسم باستخدام الكتابة وإعطاء القدر المعلى لها. وإن كان إدخال الأرقام الصناعية، والتلفاز، والفيديو يؤذن بولوج مرحلة جديدة من الحضارة الحديثة، فأساسياتها التي لا غنى عنها قد وضعها الإنسان عبر عصوره المختلفة من الأزمنة الكلاسيكية عبورا بالعصور الوسطى وعصر النهضة والقرن العشرين. وفي القرآن الكريم نقرأ:

﴿ أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ ﴾ [العلق: ٣ - ٥]

(حسن الريح يوسف، ١٩٩٧، ٢: ١٠٧).

النظام الكتابي

أن التعاريف عن الخط أو الكتابة لا تعطينا صورة دقيقة لمعنى الخط، ولا ترسم صورة واضحة له فما الخط؟ هل الخط علم أم فن أن فلسفة؟

الخط علم:

وذلك لأنه يعتمد على أصول ثابتة وقواعد دقيقة، تستند إلى موازين وضعها الأقدمون، وقد وضعت في هذا العلم مؤلفات كثيرة بحثت أسسه وقواعده كما دخل هذا العلم كمادة دراسية في حقل التعليم، وهذه القواعد العامة في الخط لا تختلف من خطاط لآخر، كذلك لا يصل الإنسان إلى إجادة هذا العلم، إلا إذا درس أسسه وقواعده.

الخط فن:

وذلك لأن محوره الجمال في التعبير يتوخاه ويهدف إليه كما يتطلب استعدادا فنيا يقدم على دقة الملاحظة والانتباه والقدرة على المحاكاة وهي أمور حتمية في الفن. كذلك فتعتمد الوضوح والتناظر والانسجام أسس فنية أصيلة. ومما يلاحظ أن التعبير في هذا الفن يختلف من خطاط لآخر حتى أنه يختلف عند الخطاط الواحد من فترة لأخرى، نظرا لتغير الانطباعات النفسية والمشاعر. وأخيرا ... فهو فن، لأنه يحتاج لتدريب طويل ومران مستمر.

الخط فلسفة:

لكل نوع من أنواع الخط فلسفة خاصة، عبرت عن فلسفة مجتمعا وطبيعته: ففي الخط الكوفي الذي كان يكتب به في العصر الجاهلي، نلاحظ خطوطا مستقيمة قاسية، عبرت عن قسوة الحياة الجاهلية القديمة. وفي خط ثلثي في العصر العباسي، نلاحظ تعقيدا في الحرف وجمالا في الشكل تلائم مع العصر العباسي بما فيه من تعقيد الحياة وروعة الحضارة. وفي اختراع الخطين الرقعة والديواني في العصر العثماني، نلاحظ ضرورات اجتماعية تمثلت في الوضوح والسرعة. الأمر الذي دعا لهذين النوعين، فجاءا معبرين عن فلسفة اجتماعية معينة. وهكذا نخلص إلى أن الخط علم وفن وفلسفة (معروف زريق، ١٩٨٥، ١٤-١٧).

اهتمام المسلمين بالخط العربي والمحاولات في المحافظة عليه

فقد كان القرآن الكريم موضع اهتمام المسلمين من أول يوم تنزل فيه على رسول الله ﷺ، فوعاه الصحابة وحفظوه، وكتبوه، وطبقوا ما فيه، وكان حرص المسلمين على

تَعَلَّم الكتابة، وتطوير الخط مرتبطاً بحرصهم على قراءة القرآن الكريم وتدبره وحفظه، والعناية بكتابته ونشره.

تفنن المسلمون في العصور اللاحقة في تجويد كتابة مصاحفهم وزخرفتها وتذهيبها والعناية بها، وفي كل عصر، بل وفي كل قطر برز خطاطون بلغوا الكمال في حسن الخط وتجويده.

لم يؤثر ظهور المطابع الحديثة في اهتمام المسلمين بجودة الخط، والتفنن في كتابة مصاحفهم، واستمروا على ذلك حتى وقتنا الحاضر، رغم ما يشهده من زخم في وسائل التقنية الحديثة التي تعنى بالكتابة وزخرفتها وتطويرها.

وفي أوروبا كانت بداية معرفة المطابع الحديثة، حيث كانت بداية طباعة المصحف الشريف، إلا أنها طباعة رديئة ومحرفة، لم تلتزم بما أجمع عليه المسلمون في رسم مصاحفهم، فكان مصير تلك الطباعات العزوف عنها وإهمالها.

وعندما عرف المسلمون المطابع الحديثة أحجموا عن طباعة مصاحفهم فيها احتراماً وتقديساً لكتاب الله الكريم، حتى صدرت فتوى من علمائهم بجواز ذلك.

لم يلتزم المسلمون في بعض البلاد في العصور المتأخرة بقواعد الرسم العثماني في كتابة مصاحفهم، بل ساروا فيها على قواعد الرسم الإملائي الحديث.

تنامى اهتمام المسلمين بكتابة المصحف الشريف وطباعته واستخدام وسائل الطبع الحديثة في بعض البلاد الإسلامية، والعمل على نشر القرآن الكريم بوسائل مختلفة، وكان أعظم عناية بالقرآن الكريم في الوقت الحاضر هو ما قامت به المملكة العربية السعودية منذ عهد المؤسس الملك عبد العزيز رحمه الله.

وتجلت هذه العناية في مظاهر عديدة، في التربية والتعليم، وفي المناشط الإعلامية المتنوعة، وفي إقامة هيئات (جمعيات) تنتشر حلقها ومدارسها في كل قرية ومدينة، وفي رصد الجوائز السنوية لمسابقات سنوية محلية ودولية، وتعد جائزة سمو الأمير سلمان بن عبد العزيز لحفظ القرآن الكريم للطلاب والطالبات على مستوى المملكة أحدث الروافد المباركة لهذا العمل الجليل.

ويمثل إنشاء مجمع لخدمة القرآن الكريم والسنة والسيرة النبوية المطهرة أعظم حدث يشهده العالم الإسلامي اليوم، وهو الذي شيده وتعهده بالعناية والاهتمام خادم

الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز حفظه الله في مهبط الوحي ومنبع الرسالة (المدينة المنورة) عام ١٤٠٥هـ / ١٩٨٤م فخدم القرآن الكريم في هذا المجمع خدمة لا مثيل لها. وبلغت العناية بسلامة نصه، والاهتمام بجمال طبعه وإخراجه حداً بعيداً نال التقدير والإعجاب، فحرص المسلمون في كل مكان على اقتناء مصحف المدينة النبوية، والقراءة فيه. سدّ المجمع حاجة ماسة عند المسلمين لمصاحف متقنة سليمة في رسمها وضبطها من أي خطأ أو تحريف، سار في كتابتها على ما ارتضاه وأجمع عليه الصحابة والتابعون، وبلغ إنتاجه حتى عام ١٤٢١هـ أكثر من مائة وخمسة وستين مليون نسخة من مختلف الإصدارات، وزع منه على المسلمين في مختلف أنحاء العالم أكثر من مائة وواحد وعشرين مليون نسخة هدية من حكومة المملكة العربية السعودية إيماناً منها برسالتها، وإدراكاً لمسؤوليتها تجاه كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وخدمة للدين ونشره في أرجاء الأرض.

لم تقتصر عناية الملكة العربية السعودية على طبع المصحف الشريف ونشره، بل امتدت إلى ترجمة معانيه إلى لغات العالم التي بلغت حتى عام ١٤٢١هـ اثنتين وثلاثين لغة، وكذلك العناية بتفسيره وعلومه المختلفة والعناية بالسنة النبوية والسيرة النبوية المطهرة. وتحظى وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد بشرف القيام على نصيب وافر من مظاهر العناية بالقرآن الكريم في المملكة العربية السعودية؛ كالإشراف على الجمعيات الخيرية لتحفيظ القرآن الكريم، والإشراف على المسابقات المحلية والدولية ومسابقة سمو الأمير سلمان بن عبد العزيز، وسنام هذا الشرف هو قيامها وإشرافها على مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة.

الخاتمة

الكتابة رمز للغة. وهي ظاهرة إنسانية اجتماعية عامة استخدمها الإنسان منذ أقدم العصور لتسجيل خواتمه رغبة منه في تذكرها أو توصيلها إلى غيره من بني البشر عبر الزمان والمكان. والخط هو تصوير اللفظ برسم حروف هجائية بتقدير الابتداء والوقف عليه. الخط له أهمية لأنه وثيق الصلة بالحياة العامة العملية وبالحياة الدراسية والتعليمية فهو من وسائل التفاهم وهو نوع من أنواع التعبير التي تخدم أغراضاً شتى بين الناس وهذا يتطلب أن تكون الوسيلة واضحة موضحة. وإذا كانت وسيلة التفاهم الشفهية وهي

الكلام تتطلب حسن الأداء وجودة الإلقاء، فإن الوسيلة اليدوية وهي الخط يتطلب حسن العرض وجمال الشكل.

إن الآثار التاريخية تدلنا على أن أقدم أنواع الخطوط التي عثر عليها العلماء وهي الأمهات للأصناف المختلفة من الحروف في العالم، وهذه الأنواع هي: الخط المسماري والخط الحيثي والخط الصيني والخط المصري. وقد ظهر مؤخرا نوع من الكتابة ينعت (بالحديث) لا يلتزم كاتبه بأية قاعدة ولا شكل معين، إنما يعتمد على ذوقه وحسن تنسيقه، وهذا النوع هو خير مخرج لهم حين يواجهون صعوبة إتقان الخطوط المعروفة، ظنا منهم أنه بإمكان أي شخص أن يكتب به بحرية التصرف المعروفة، إلا أنه على خلاف رأيهم، ويتحسس الأشكال والنسب، وحينئذ فقط يمكن الاعتراف بخطه فنيا، كأية لوحة فنية مرسومة، ورغم الجمال الذي يُطفح به بعض اللوحات الخطية، فإنها لا تحمل من معاني العمق ما يحث الفنانين على كتابة الآيات الكريمة أو الأقوال المأثورة والحكم البالغة بهذا الخط الحديث، فهو خط يناسب لوحات الإعلانات أكثر من أي شيء آخر.

إن آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ أول من كتب الكتاب العربي والسرياني وسائر الكتب الاثني عشر، وإن الكتابات كلها من وضعه. كان قد كتبها في طين وطبخه (يعني أحرقه ودفنه) قبل موته بثلاثمائة سنة، فبعد الطوفان وجد كل قوم كتابا فتعلموه بإلهام إلهي ونقلوا صورته واتخذوه أصل كتابتهم.

الخط هو فن، وذلك لأن محوره الجمال في التعبير، والخط هو علم، وذلك لأنه يعتمد على أصول ثابتة وقواعد دقيقة، تستند إلى موازين وضعها الأقدمون، والخط هو فلسفة، وذلك لأن لكل نوع من أنواع الخط فلسفة خاصة، عبرت عن فلسفة مجتمعه وطبيعته.

كان القرآن الكريم موضع اهتمام المسلمين من أول يوم تنزل فيه على رسول الله ﷺ، فوعاه الصحابة وحفظوه، وكتبوه، وطبقوا ما فيه، وكان ما قام به أبو بكر الصديق بمشورة عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا من جمع القرآن مما هو مكتوب أو محفوظ في عهده رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عملا عظيما حُفِظَ به القرآن، وسار على نهجه عثمان بن عفان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عندما جمع الناس على مصحف واحد ومنع الاختلاف بين المسلمين، وقد نال زيد بن ثابت رَضِيَ اللهُ عَنْهُ شرف تحمل مسؤولية جمع القرآن في عهد أبي بكر، وكتابتها في عهد عثمان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ. وما قام به أبو الأسود الدؤلي وتلاميذه من بعده من نَقَطٍ للمصحف الشريف بتوجيه من زياد ابن أبيه والي الخليفة معاوية بن أبي سفيان على العراق، ومثل ذلك ما قام به نصر بن عاصم،

ويحيى بن يَعْمَرُ بأمر من والي الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان على العراق الحجاج بن يوسف الثقفي. ولم يكن المسلمون في العصر العباسي قام إمام اللغة الخليل بن أحمد الفراهيدي وتلاميذه من بعده بتطوير نقط الإعراب (الشكل). ثم تفنن المسلمون في العصور اللاحقة في تجويد كتابة مصاحفهم وزخرفتها وتذهيبها والعناية بها، وجاءوا بما يُبهر من الخطوط المنسوبة، التي خلّدت ذكرهم على مرّ العصور، وعلى رأس هؤلاء قُطْبَةُ بن الحرّ، وابن مقلّة، وابن البواب، والمستعصي. وعندما عرف المسلمون الأتراك المطابع الحديثة المصنوعة في الغرب أحجموا عن طباعة مصاحفهم فيها احتراماً وتقديساً لكتاب الله الكريم، حتى صدرت فتوى من علمائهم بجواز ذلك. لم يلتزم المسلمون في بعض البلاد في العصور المتأخرة بقواعد الرسم العثماني في كتابة مصاحفهم، بل ساروا فيها على قواعد الرسم الإملائي الحديث، حتى كتب رضوان بن محمد المخلّلاتي مصحفه الشهير، وطبع في عام ١٣٠٨ هـ، فالتزم فيه بالقواعد التي أجمع عليها وارتضاها الصحابة والتابعون. تنامى اهتمام المسلمين بكتابة المصحف الشريف وطباعته واستخدام وسائل الطبع الحديثة في بعض البلاد الإسلامية، والعمل على نشر القرآن الكريم بوسائل مختلفة، وكان أعظم عناية بالقرآن الكريم في الوقت الحاضر هو ما قامت به المملكة العربية السعودية منذ عهد المؤسس الملك عبد العزيز رحمه الله. ويمثل إنشاء مجمع لخدمة القرآن الكريم والسنة والسيرة النبوية المطهرة أعظم حدث يشهده العالم الإسلامي اليوم، وهو الذي شيده وتعهده بالعناية والاهتمام خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز في مهبط الوحي ومنبع الرسالة (المدينة المنورة) عام ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٤ م وترجمة معانيه إلى لغات العالم التي بلغت حتى عام ١٤٢١ هـ اثنتين وثلاثين لغة، وكذلك العناية بتفسيره وعلومه المختلفة والعناية بالسنة النبوية والسيرة النبوية المطهرة.

المراجع:

القرآن الكريم، سورة البقرة

ابن عبد البر بن عاصم، النمري، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد. تحقيق: أبي الأشبال الزهيري. ١٤١٤ هـ / ١٩٩٤ م. جامع بيان العلم وفضله. الطبعة الأولى. المملكة العربية السعودية: دار ابن الجوزي.

إميل يعقوب، د. ت. الخط العربي نشأته وتطوره ومشكلاته دعوات إصلاحه. طرابلس: جروس برس.ل.

إبراهيم ضمرة. ١٩٨٨. الخط العربي جذوره وتطوره. الطبعة الثالثة. الأردن: مكتبة المنار. أبو الفرج، محمد بن أبي يعقوب إسحاق. ١٩٨٨. الفهرست. دار المسيرة.

الحاكم، أبو عبد الله، محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نعيم بن الحكم الضبي الطهماني النيسابوري. تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا. ١٤١١هـ - ١٩٩٠م المستدرك على الصحيحين. الطبعة الأولى. بيروت: دار الكتب العلمية.

حسن الريح يوسف. ١٩٩٧. مجلة مجمع اللغة العربية. العدد الثاني. السودان: مطبعة جامعة الخرطوم.

زكى صالح. ١٩٨٣. الخط العربي. الهيئة العربية العامة للكتاب.

عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي. ١٩٨١. المقدمة. الطبعة الرابعة. بيروت: دار القلم.

القلقشندي، ١٩٨٧. صبح الأعشى في صناعة الإنشاء. الطبعة الأولى. ج-٣، بيروت: دار الكتب العلمية.

الماوردي، أبو الحسن على بن محمد بن حبيب البصري. ١٩٨٨. أدب الدنيا والدين. الطبعة الأولى. بيروت: دار إحياء العلوم.

معروف زريق. ١٩٨٥م. كيف نعلم الخط العربي. الطبعة الأولى. دمشق: دار الفكر.

المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، ١٩٧٨ م. حلقة بحث الخط العربي. مصر: دار المعارف.

فخر الدين، محمد. ١٣٦١. تاريخ الخط العربي. القاهرة

محمد طاهر الكردي. ١٩٣٩. تاريخ الخط العربي وأدبه. القاهرة.

ناجي زين الدين. ١٩٧٤م مصور الخط العربي. بيروت.